ماهو أدب اليوم ؟...

للأستاذ كرم ملحم كرم

أدب اليوم رواية وقصة

فالمنشئون من أى طبقة كانوا لايعتمدون فى معظم مؤلفاتهم على غير الحكاية والرواية ، فالفن القصصى هو السائد . وأكثر الأدباء بلغوا القمة فى إخلاصهم لهذا الفن . ولا بدع ، فالرواية محك الأدباء . المنشىء البليغ يظهر فيها ، والكاتب الركيك السمج يفضح نفسه إذا توكأ عليها

وأكابر الأدباء فى العالم لجأوا إلى القصة يذيبون فيها بلاغتهم وقوة بيانهم . فما أحجم عنها « فولتير » ولا « جان جاك روسو » ولا « لامارتين » ولا « ألفرد ده موسيه » ولا « فكتور هوجو » ولا « فرنسوا كوبيه » ولا « تولستوى » ولا « ادجار والاس » ولا « كونان دويل » ، فكلهم مال إلى القصة يعالجها

وإذا لم تكن رواية « غرازيبلا » أو رواية « رافائيل » أسمى من شعر لامارتين فهما لاتقلان سمواً عن هذا الشعر . وإذا لم تكن رواية « الباثسون » لفكتور هوجو أرفع من منظومه فلقد عادلت هذا المنظوم ، ونفحت الشاعر بشهرة فوق شهرته ، وزادت فى تخليده ، وحملت عشاق الأدب الروائى على التحدث عنها فى العالم أجمع . فان شهرة « الباثسون » شهرة عالية لايجهلها نادٍ أدبى . وما يقال فيها يقال فى « غرازيبلا » و « رافائيل » للامارتين ، وفى اعترافات جان جاك روسو . أليست إعترافات جان جاك روسو حكاية من الحكايات وفيها يحدث الرجل عن نفسه ؟ . . .

نعم لقد تربع جان جاك روسو فى « عقده الاجتماعى » فى ذروة الفلسفة ، على أن « اعترافاته » رفعت من مقامه كأديب ، وباتت خالدة كمؤلفه الفلسفى ، فمن شاء الوقوف على حياة الرجل فليس له إلا أن يقلب « الاعترافات » فيدرك من هو جان جاك روسو

و « اناتول فرانس » أستاذ الأدباء فى مطلع القرن العشرين مدين بشهرته لرواياته ، ومثله بلزاك ، وأميل زولا ، وموريس بارس ، ومارسيل بريفو ، وهنرى بوردو ، ورينه بازان ، وبول بورجيه ، فان أعظم أدباء فرنسا لا تقوم شهرتهم على سوى الروايات التى أنشأوها ، ومثلهم أدباء انكلترا وروسيا . فالقصة إذاً أساس الأدب العالمى

والدين نفسه يقوم على الروايات . فما هو كتاب التوراة ، وما هو الانجيل ، وما هو القرآن ؟ أليس للرواية من هذه الكتب الدينية أكبر نصيب ؟

وإن تكن التوراة أقدم كتاب تتداوله الأيدى ويتسنى للجميع الاطلاع عليه ، جاز لنا القول أنه أول كتاب عرفه العالم مشيد الأركان على القصة . فهو يبدأ بقصة وينتهى بقصة . والكتب الخالدة فى معظمها — إذا استثنينا كتب الفلسفة والعلم — كتب قصصية سواء صبت نظماً أو نثراً

ولا شأن اليوم فى المؤلفات الأدبية لسوى المؤلفات القصصية ، وهذه الكتب التى تتمتع بالجوائز الضخمة ، ولا سيما جائزة « نوبل » ، لا تخرج فى سوادها الأعظم عن النطاق الروائى

ولقد جاء الأدب العربى فى عهده الأول بما يعجز عنه الغرب من قصص وروايات . فما هى « كليلة ودمنة » ، وما هى « الف ليلة وليلة » ، وما هو « عنتر » ، بل ماهى « الأغانى » ، وما هو « المستطرف » ، وما هو « العقد الفريد » ، وما هى « نهاية الأرب » ؟ . . . كلها روايات وقصص : وإن تكن كليلة ودمنة غير عربية المولد فهى لم تخلد فى سوى النص العربى . وباستطاعة لغة الضاد أن تتبناها ، خصوصاً ولها عليها باستبقائها يد بيضاء

وما يقال فى كليلة ودمنة يقال فى ألف ليلة وليلة . فالأدب العربى احتضن الف ليلة وليلة وتعهدها بالبقاء . ويمكن الأدعاء أنها عربية الوجه واللسان . أما رواية « عنتر » فقد روى أنها من سبك الأصمعى . والأصمعى — الف رحمة الله عليه — خير من لفق واختلق ، وروى وتحدث ، وسرد وابتكر واخترع . ولقد أتى بالعجائب وهو فى تلك الصحراء الكاوية اللاذعة . فبهر العيون وملك الألباب بغزارة علمه وفرط ذكائه وعذوبة حديثه وفيضان بحره . فانه ليتدفق كالسيل فى الحديث عن الأعراب وعشقهم وغرامهم . ويروى حكاياتهم بدقة وإبداع ، فيسحر سميعه وجليسه ، ويستدر رفد الملوك والعظماء ، ويجود

بالمعجزات فيقصر عنه المتطاول والمقلد واللاحق ، كأن سر الرواية فى الأدب العربى القديم يقتصر على غير الأسمى

ولو ظهرت كليلة ودمنة والف ليلة وليلة فى هذا العهد لكان الأدب العربى سيداً فى الفن الروائى ، حتى وإن يكن ثمة من زعم أن الكتابين ليسا من مبتكرات الأدب العربى ، فليس من أدب غير الأدب الشرقى يسبح فى هذا الخيال الرحيب الخصيب

ولا ننسى أن أداء القصة وسياقها فى كليلة ودمنة والف ليلة وليلة يختلفان كل الاختلاف عن مثلهما فى روايات اليوم . فهما جديدان مبتكران لقوة المخيلة فيهما اليد الطولى . ومن المحال أن يوفق فيهما ويهتدى اليهما من لم يكن يحلق فى الأفلاك

واختلافهما عن روايات اليوم يحببانهما إلى عشاق الروايات ويفسحان لهما المقام الأول فى الأدب العالى ، ولكن أين من يقوى على توفير ذلك النسيج ؟

ربما جهل الأدب العربى يوم طلعت فى سمائه « كليلة ودمنة » و « الف ليلة وليلة » قيمة هذين السفرين . ربما أعرض عنهما وشغف بمقامات الهمذانى والحريرى — ومقامات الهمذانى والحريرى فن روائى خاص — على أنه اليوم يدرك شأنهما ولا يتنكر لهما بل يفاخر بهما وإن يكن استمدهما من بلاد الهند وفارس كما ذاع وشاع

لقد كان الأدب اليونانى يحفل بهذه الأقاصيص البارزة فى كليلة ودمنة والف ليلة وليلة . ومن هذا الأدب نهل « لافونتين » فى أقاصيصه الفرنسية ذات الشعر الطليق . على أن ثمة من يقول ، ويثبت ما يقول ، أن « لافونتين » سمع بكليلة ودمنة فاقتبس منها وصاغ تلك الأقاصيص الواقفة فى طولها عند الفتر ، وإن تجاوزته فالى الشبر ، اللاتى بالمغزى الرائع والارشاد البليغ ، فاستمان بالحيوانات على تأديب الملوك شأن ابن المقفع فى كليلة ودمنة . ومما يدل على اقتباس « لافونتين » من كليلة ودمنة أن بين ابن المقفع ولافونتين نحواً من ألف سنة ، وأين كان الأدب الفرنسى يوم كان الأدب العربى زاهراً ريانا يناطح السماء ؟ ..

قد نسمع ممن نحدثه عن كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة أنهما شيء قديم . غير أن هذا القديم لا تخلق جدته . فهو أبداً جديد . وعشاق الروايات وقد ملوا طراز اليوم ، وبعضه يشبه بعضاً ، يميلون الى الجديد . وروايات ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة مما يجوز أن نسميه جديداً ، وإن تكن انبثقت منذ ألف عام .

ولا نكير فى أن ثمة خرافات وأساطير ، على أن الخرافات والأساطير إذا عرضت على الناس فى إناء مزخرف براق وكانت دسمة طيبة ازدردها الناس وهضمها المعد . وخرافات ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة كالفاتنة الحسناء ، وكل ما يعاب على ألف ليلة وليلة المجهولة الأم والأب أنها ركيكة ضعيفة فى قالبها ، ولو اتفق لها من يصوغها فى بيان ابن المقفع لنافست كليلة ودمنة فى متانة تعبيرها وصحة مبناها .

ومما نستدل به على أن كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة يثيران ضجة بعيدة الصوت فى الأدب العربى ، لو برزا اليوم الى النور ، ويتربعان فى القمة العليا من الفن الروائى ، ما يلقيان من غزو الروائيين الأجانب . فكل يوم يرزحان تحت غارة جديدة . وليست رواية « حديقة على الماصى » للكاتب الفرنسى المشرق الديباجة « موريس بارس » غير قبس من ألف ليلة وليلة . وما رواية « الأتلانتيد » لبيير بنوا غير صفحة من صفحات الف ليلة وليلة . فكأنها مستوحى أدباء الفرنج يسلبونها أطايبها الناجعة دون أن يقف فى سبيلهم من يقول لهم : ماذا تفعلون ؟ .

ومع كل احترامنا للتوراة وتقديرنا لها نجرؤ على أن تقارن بينها وبين ألف ليلة وليلة مقارنة صادقة لا ترى مطلقاً الى الحط من قدر الكتاب الكريم . إن هى إلا مقارنة أدب بأدب . وكل ما نريد إثباته أن ألف ليله وليلة أضحت لدى كتاب الغرب أشبه بالتوراة . فكما يغيرون على التوراة يستوحونها يغيرون على ما جادت به علينا شهرزاد اللسانة ، أو الثرثارة ، التى لا تسكت عن الكلام المباح إلا حين يطلع الصباح .

ولا تقف غارة كتاب الغرب عند الف ليلة وليلة ، بل هم يشنون أبداً الغارة علينا ويستأثرون بكنوزنا ونحن عنهم فى غفلة ، فلا نراهم إلا يشدون الرحال الى هذا الشرق ، هذا الشرق الحافل بكل غريب ، الطافح بالأسرار ، المنبثقة منه الأديان ، المتصاعدة من معابده روائح البخور تنفثها المجامر الحزاء . هذا الشرق القديم فى حضارته وهيا كله وآلهته ، الحفل بالرموز والأشباح والعفاريت ، المخيمة عليه حسرات داود وحكمة سليمان ، هذا

الشرق الراسخة فيه المساجد العالية القباب ، والمآذن الناطحة السحاب ، والمستورة فيه المرأة وراء ألف حجاب وحجاب . هذا الشرق مهد الناقة والبعير ، المتهادية فيــه العمائم والقلانس والطرابيش ، المكردسة فيه الذكريات أطباقاً فوق أطباق ، من عهد الفراعنة ، الى عهد العبرانيين ، الى عهد الأشوريين ، الى عهد الفرس ، الى عهد العرب ، الى عهد الأتراك .

وعلينا ألا ننسى الصليبيين . فالصليبيون أموا هذه الديار . ومنذ أقبلوا والغارات علينا تتلو الغارات فى الميادين كلهــا ، فى السياسة والأدب ، فمن غزو الى استعمار . !

* * *

ومن غزاتنا فى أدبنا « بيير بنوا » القصصى الفرنسى . فهو يفكر اليوم فى وضع رواية تتناول فصولها جماعــة الصليبيين وتدور حوادثها عليهم . فهم أبطالها وسادتها وحجر الزاوية فيها ، وليير بنوا أن يقول فى الصليبيين ماشاء . فالقول ذو ســعة ، ومخيلة الكاتب قد تأتيه بالمبتكر ، ولكن هل عوّدنا بيير بنوا الأبتكار ؟ . . .

كل مارأينا من بيير بنوا لا يزيد على كونه مقتبساً ، وهـذا الأقتباس لاغبار عليه لوعرف الكاتب كيف يتلاعب به ويمنحه من قوة الخيال والجمال ما يرفع من شأنه ويزيد فى قدره ، أما أن يكتفى بالاقتباس دون أن يضيف أليه الأبتكار الورق السمين فأى عمل أتاه ؟ . . .

وبيير بنوا ليس من المبتكرين فى إنشائه ولا فى حوادث روايته فهو من الطبقة الوسطى فى الروائيين ، وفى طبقة دون الوسطى فى المنشئين ، حتى ولئن يكن يكتب باللغة الفرنسية . فليس كل مايكتب باللغة الفرنسية وبسائر اللغات الحيــة بليغاً عالى الديباجة باقياً على ممر الأيام . فكل لغة حافلة بالمبتذل السخيف . كل لغة يتلاشى منها معظم مايكتب الكاتبون وينشر الناشرون . ولايخلد من ثمار القرائح غير جزء من عشرة آلاف جزء . ولذا بقى شىء من مواليد « بيير بنوا » الأدبية ، فلا ريب بأن روايته « ربة قصر لبنان » ــ وقد استمدها من لبنان ــ ليست بذلك الجزء الباقى ، فهى تحت رحمة الفناء ، وربما استطعنا أن ننعاها منذ الآن .

قد تبقى منه رواية « الاتلانتيد » ، على أن رواية « الاتلانتيد » من سرقاته لا من مبتكراته . وكل تفننه فيهــا أنه انتقل بها الى أفريقيــا ، الى الصحراء ، الى تلك الديار القاحلة المجراء . وماذا يقال عنه فيها ؟ . . . يقال إنه صاحب « الاتلانتيد » ليس غير .

وقد يجوز لك أن تقرأ « الاتلانتيد » كما يجوز ألا تقرأها . فاذا قرأتها خرجت منها صفر اليدين . وإذا وقفت عن قراءتها ربحت الوقت إن يكن الوقت عزيزاً عليك . وقد تسأل : كيف بلغت رواية « الاتلانتيد » هذه الشهرة العالميــة ؟ . . . وجوابنا أن المؤلف أجاد بث الدعوة لروايته ، فذاع لهــا الصوت الماطر فى الأندية الأدبيــة جمعاء قبل أن تقف هذه الأندية على مضمونها . وشــاق الذين طالعوها من الغربيين تلك الصبغة الشرقية فيها . وجاءت دور السيمياء ترفع من مكانتها . والحق يقال إن « الاتلانتيد » نجحت فى عالم السينماء أكثر منها فى عالم الأدب

واليوم و « بيير بنوا » يفكر فى وضع روايتــه الصليبية سوف نرى أى وحى هبط عليه . أيدرك التوفيق أم لا يوفق ، ونحن نرتاب فى توفيقه لمعرفتنا شأنه الأدبى . غير أننا لانستطيع الانكار ان الرجل من الغزاة الفاتحين . فهو يقبل علينا ينتزع منا موضوعاته الروائية ونحن نشاهد ما عندنا من كنوز ولا نـكلف أنفسنا نبشها وإبرازها إلى النور . فالرواية فى الأدب العربى الجديد لاتزال فى المهد ، مع أن الأعصر العباسية حفلت بها وراحت تفاخر العالم بثمارها اليانعة الشهية ، ولا يبرح العالم يتذوق هذه الثمار وسيتذوقها ما دام الأدب وضاء الجبين

وليت أدباء اللغة العربية يدركون اليوم شأن القصة ، فتعالجها أقلامهم بما يعيد إلى الأدب العربى مكانته الأولى وعزه القديم . فالرواية حجر الزاوية فى كل أدب ، وفى كل نهضة ، وفى كل دين !

بيروت

كرم ملحم كرم
صاحب جريدة « العاصفة »

ضحى الإســـــلام

وهو الكتاب الثالث لفجر الإسلام

للأستاذ أحمد أمين

ثمنه ٢٠ قرشاً